قراءة في مضامين الخطاب الشعري المغاربي القديم، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري أنموذجًا–

A reading of the contents of the Maghreb poetry discourse, Abd Elrazak Ben Hammadouch the Algerian -model-

مقدم فاطمة [1]

[1]المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان، البريد الإليكتروني:kiramk48@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/04/30 تاريخ القبول: 2020/05/12 تاريخ النشر: 2020/06/17

الملخص:

ضمن ابن حمادوش أشعاره في الجزء الثاني من رحلته الموسومة بعنوان: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، ويرى كثير من الدارسين لها أنّها تمثل جزءً هامًا من تراث الجزائر والمغرب، لأنّها كتبت في العهد العثماني، بالنظر إلى أن عدد كتب الرحلة الجزائرية ضئيل جدًا في هذا العصر – لأنّ معظمهَا ضائع حسب علمي – فهي تزخر بالمعلومات الكثيرة سياسيًا وفكريًا واجتماعيًا واقتصاديًا عن عصر كاتبها ومعاصريه، كما أنها مصدر هام عن حياة المؤلف نفسه.

لقد كاد النسيان يأتي على هذه الشخصية الهامة في تاريخنا الثقافي لو لا كتاباته التي جعلت الباحثين يهتمون به بعد وفاته، فقد عاش ابن حمادوش خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م)، وأسهم فيه برحلاته وتجاربه الطبية، وكان مسجلاً للأحداث المعاصرة شعرًا ونثرًا، بل ومشاركًا فيها، وشاهدًا عليها، وكانت له رغم الركود الذي أصاب الحياة الثقافية تطلعات وآثار ثاقبة، وقد عاش حياة فقيرة عانى منها جسديًا وفكريًا، فكانت الضحية في ذلك هي كتبه ومذكراته التي لم يصلنا منها إلاَّ القليل، فالرحلة التي بين أيدينا تمثل الجزء الثاني منها، على أنّ الجزء الأول ضائع – فيما أعلم – فلو عثرنا عليه لتمكنا من معرفة أمور أخرى كثيرة عن حياة ابن حمادوش وعصره، وإنّ الغاية التي نسعى إليها من خلال دراسة

المؤلف المرسل: مقدم فاطمة

المضامين الشعرية الواردة في ثنايا رحلة ابن حمادوش الجزائري، هي التقرب أكثر من هذا المنجز الشعري للتعرف أكثر على شخص مؤلفها وعصره، ومعاصريه، ومنزلته بينهم.

الكلمات المفتاحية: الخطاب؛ الشعر؛ المضامين؛ الأغراض؛ الجزائر؛ المغرب؛ عبد الرزاق بن حمادوش.

ABSTRACT :

Ibn hamadouche wrote his poems in the second part of his travel which entitled: the article tongue in the news on the descent and ancestry and case. That's why many researchers considered it as an important part of Algeria and morocco héritage, because it was written in the ottoman period, However the number of travel books written in this age is very few -because most of them are lost as I know- it's rich with information in various fields, political, intellectual, social and economic about the age of it author and contemporaries.

This important personality in our cultural history was almost forgotten if it were not for his writings that made the researchers interested about him after his death. Ibn hamadouche lived during the twelfth century AH(18 AD), where he contributed to his travel and medical experience and he was recorded this events in his time through poetry and prose, because he participated and was a witness to it , he also lived a poor life that affected him physically and intellectually, that's why we received a few of his books and memoirs, this travel is the second part, because the first one is lost -as I know- if we found it we would discover many other things about his life and his age, And that is what we seek through the study of the poetic contents contained in the travel of Ibn hamadouche, is to draw closer to this poetic work in order to learn more about the personality of the author and his age and his contemporaries even his place among them.

Keywords: Discourse; poetry; contents; purposes; Algeria; morocco; and elrazak Ibn hamadouche.

تتعدد قراءات الخطاب الشعري بتعدد الرؤى، وتنوع الثقافات، وهذا ما يجعل الخطاب الشعري يتجدد، وينبعث من خلال كل قراءة؛ لأن القراءة سبيل إلى تعدد وجهات النظر.

فالقارئ يستقبل الخطاب بما يملكه من قدرات فكرية، ولغوية، وثقافية، وهذه العناصر درجات متفاوتة بين

القراء كل يعمل على إثرائه بهذه المعطيات الشخصية، فالخطاب بنية لغوية فنية منغلقة بالنظر إلى الشكل المجسد للعناصر اللغوية، ومنفتحة بحسب قدرات التأويل، فلا يمكن– إذًا– فهمه إلا بمعرفة دلالاته السطحية، والعميقة، وتفهم المقام الذي أنتج فيه، والظروف الاجتماعية المحيطة بالمبدع، وبالعمل الإبداعي، فإذا استطعنا الإحاطة بهذه الأمور، أدركنا قيمته اللغوية، والإبداعية، والجمالية.

وكما هو معلوم لدينا، فإنّ الشعر فن من الفنون الجميلة، مثله مثل التصوير والموسيقى والنحت، وهو في أغلب أحواله يخاطب العاطفة، ويستثير المشاعر والوجدان. وهو جميل في تخير ألفاظه، جميل في تركب كلماته، جميل في توالي مقاطعه، وانسجامها بحيث يتردد ويتكرر بعضها فتسمعه الآذان موسيقى ونغمًا منتظمًا، وتبعًا لذلك، فالشعر صورة جميلة من صور الكلام[1] معنى ذلك أنّ الخطاب الشعري هو سلسلة من الصور الفنية الموحية والمعبرة في نفس الوقت عن الحالة الشعورية، والفكرية، والنفسية، والانفعالية لمنتجه، ذلك "لأنّ معرفتنا مختزنة في الذاكرة على شكلّ بنيات معطاة ممثلة لأوضاع متكررة نستقي منها عند الاحتياج إليها لتتلاءم مع الأوضاع التي تواجهنا"[2]، وبناء على ذلك، فالشاعر يستمد مضامين خطابه الشعري من الواقع[3]، كما لا يغفل دور السياق في الكشف عن مراميه ومقاصده، مراعيا في كل ذلك حالة المخاطَب" طبعًا.

وبما أنّ الخطاب الشعري عالم له توهجه الخاص، بل هو عالم معقد تحوم فيه شتى النوازع، فإنّ ذلك يصعب على القارئ مهمة الوقوف على مقاصده وأبعاده المختلفة، ودراسة جميع جوانبه، وعليه، يضطر الدارس له إلى تحديد وجهة ما في الدراسة لإيضاح جانب معين من هذا الخطاب، ولعلّ أخصب المناهج، وأنسبها، وأشدها تعلقاً بالخطاب الشعري المنهج اللِّساني، ومرجع ذلك إلى ما حققه من نتائج علمية في دراسة الظاهرة اللغوية، "فيغدو تفاعلاً قاراً بين تفكيك الظاهرة إلى مركباتها والبحث عما يجمع الأجزاء من روابط مؤلفة فهو منهج يعتمد الاستقراء والاستنتاج معاً بحيث يتعاضد التجريد والتصنيف فيكون مسار البحث من الكل إلى الأجزاء ومن الأجزاء إلى الكل حسبما تمليه الضرورة النوعية"[4]، فاقتراب اللِّسانيات من الأدب بصفة عامة، ومن الشِّعر بصفة خاصة تتوسع نظرياتها، ومناهجها، وتزداد تطورًا واتقانًا ودقة وموضوعية[5] في البحث، وفي الكشف عن خبايا وأسرار هذا المنجز الشعري.

ومما هو متفق عليه، هو أنّ الشعر تجربة إنسانية تعبر عن أحوال المجتمع بل وأفكاره، لأنّ الشاعر العربي قديمًا وحديثًا هو لسان حال أمته، كيف لا، وهو الذي استطاع أن يعكس بشعره الأوضاع السائدة في مجتمعه، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، ومن هنا فالخطاب الشعري –من حيث هو رسالة– هو فعاليّة لغوية انحرفت عن مواضعات العادة والمألوف وتميّزت بخاصيّة التحديّ التي رفعتها عن موضعها الاصطلاحيّ إلى موضع جديد يخصّها ويليق بها، والظاهر أنّ خير وسيلة للنظر في تجليّات الخطاب الشعريّ وسبل تحرّر عناصره هو الانطلاق من مصدره اللغويّ من حيث كان مقولة أسقطت في نظام التواصل اللّفظي[6]، وعند هذا الطرح يتبين لنا أنّ الخطاب الشعري، "ليس لعبًا بالألفاظ فقط وليس نقل تجربة فردية ذاتية فحسب، إنّه يهدف كذلك إلى الحث والتحريض والاقناع والحجاج، وهو يسعى إلى تغير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومعتقداته"[7]، وفي ضوء هذا المعطى، فالخطاب الشعري هو سلسلة من الصور الفنية الموحية والمعبرة في نفس الوقت عن الحالة الشعورية، والفكرية، والنفسية، والانفعالية لمنتجه، حيث يسعى هذا الأخير إلى إثارة متلقي خطابه من خلال الصور التي يهدف إلى ترسيخها في ذهن المتلقي، بل ودفعه إلى أنْ يعيش تلك الحالات النفسية والانفعالية كمشهد عايشه هو في الواقع.

وتساوقًا مع هذا الطرح، نلاحظ أنّ الخطاب الشعري في الأدب العربي يقسم عادة إلى موضوعات، ولهذا "فالشعر وفقا لفكرة الموضوعات التقليدية ضرب من الحلى أو جنس من التصوير، فكرة الموضوعات غير منبثقة من الشعر نفسه، وانّما هي منبثقة من خارجه، أو من المجتمع الذي يتطلب"[8] مثل هذه الأغراض، بوصفها تحتوي على مضامين فكرية منبثقة أساسًا من رحم المجتمع.

وتأسيسًا على ما سبق ذكره، ارتأيت أن أسم مداخلتي بعنوان: قراءة في مضامين الخطاب الشعري المغاربي القديم، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري –أنموذجًا–

ويهمنا أن نشير ها هنا، إلى أنّ عبد الرزاق ابن حمادوش[9] قد ذكر أغراض شعره في الرحلة حين قال: "بنيت ديواني على الغزل والنسيب والمراثي ومدح المصطفى صلى الله عليه وسلم"[10]، إلاّ أننا صادفنا قصائدًا تتناول أغراضاً أخرى أيضًا غير التي ذكرها – سابقًا – ما عدا الرثاء، والظاهر لنا من

خلال أشعاره الواردة في الرحلة، هو أنّه نظم قصائد عديدة تتناول موضوعات كثيرة مثل "المدح والحنين إلى الأهل والوطن والفخر والشكوى من كساد التجارة، ومعاكسة الزمان، والإستجازة من علماء المغرب، ونحو ذلك"[11].

ويبدو أن لمؤلف الرحلة أشعارًا مفقودةً نظمها في الأغراض التي أشار إليها، والتي قال أنّه جعلها في ديوانه الذي ما يزال مفقودًا هو الآخر– حسب علمي– واستنادًا إلى كل هذا سنحاول ذكر القصائد والقطع الشعرية التي عثرنا عليها في الرحلة، وسوف نبين مضامين الأغراض التي قيلت فيها، ومطالعهَا وبعض الأوصاف الأخرى لكل قصيدة وقطعة.

1– المدح: نظم ابن حمادوش قصيدتين يمدح فيهما السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل، الأولى كانت أثناء ولايته عام 1145هـ، ويشير في الرحلة أنه لم يقدمها له، بدليل قوله: "وما تقدم من هذه القصيدة التي هنيت فيها مولاي عبد الله لم أدفعها إليه، وإنما حملني الأدب عليها ووضعتها في رحلتي"[12]، وهذه القصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتا، ومطلعهَا:

قَطَعْتُ بِحَارًا مُوهِلاَتٍ وَدُونَهَا قِفَارًا لاَ تَأْوِيهَا الوُحُوشُ مَعَ الطَّيْرِ
وجُبْتُ بِلاَدَ التُّرْكِ وَالعَرَبِ وَالعَجَمِ عَلَى قَدَمِي وَطَوْرًا وَطَوْرًا عَلَى الحُمُرِ[13]

حيث يتجلى لنا غرض المدح في هذه الأبيات، التي يقول فيها:

أَمَوْلاَيَ عَبْدُ اللهِ طِبْتَ أُبُوَّةً وَأُمًّا، فَهَلْ مِثْلُ الخَلِيفَةِ فِي العَصْرِ
أَيَا ابْنَ اللُّيُوثِ العَادِيَاتِ عَلَى العِدَا وَيَا ابْنَ الكِرَامِ الرَّاحِمِينَ لِذِي الفَقْرِ
أَبُوكَ النَّوَى لِلْفَاسِقِينَ وَإِنَّهُ لَغَيْثٌ عَلَى أَرْضِ المَسَاكِينِ بِالخَيْرِ
وَأَنْتَ لَعَمْرُ اللهِ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ وَفِي الجُودِ بَحْرٌ إِلاَّ أَنَّهُ لِلْأَجْرِ
رَأَيْتُكَ بِالقِنْطَارِ ضَيَّفْتَ قَاضِينَا وَقِنْطَارُكَ المَوْزُونُ يُثْقَلُ بِالظَّهْرِ
وَأَصْحَابُكَ الغِرُّ الكِرَامُ فَإِنَّهُم عُيُونٌ كَحَلَقَةِ النُّجُومِ عَلَى البَدْرِ
عَلَيْكُمْ سَلاَمُ اللهِ يَا مَجْمَعَ الرِّضَى وَأَلْفَ تَحِيَّاتٍ تَدُومُ مَدَا الدَّهْرِ[14].

وأمّا قصيدته الثانية فيمدح فيها نفس السلطان (عبد الله بن إسماعيل) ويهنئه فيها حين هزم وقتل الثائر أحمد الريفي، غير أنّه لم يقدمهَا له أيضًا، بدليل قوله: "وقد هيأت له قصيدة هنيته فيهَا حين قهر

الباشَا ورجع، فلما رأيت غلظ حجابه مسكتهَا عندي"[15]، معنى ذلك أن إذن السماح له بالدخول على السلطان قد رُفِضَ، وتبلغ هذه القصيدة ثلاثة عشر بيتًا، ومما جاء فيها قوله:

أَمَـوْلاَيَ عَبْـدُ اللهِ بُشْـرَكَ الهَنَـا   بِكُلِ الَّذِي تَبْغِي مِنَ الفَتْحِ وَالنَّصْرِ
وسَاقَتْ رِيَاحُ السَّعْدِ جَـارِيَةَ الهَنَـا   لِسَاحِلِ بَحْرِكَ المَفِيضِ عَلَى اليُسْرِ
كَأَنَّـكَ بَحْرٌ فِي العَطَـاءِ وَمَنْ يَكُـن   كَمِثْلِكَ حُـقَّ أَنْ يَنَـالَ مِنَ الظَّفْرِ
وَذَّلَـتْ لَـكَ الأَعْـدَاءُ حَتَّى كَـأَنَّهَـا   أَرَانِبٌ لاَ تَعْدُو خُطَاهَـا عَنِ الجُحْـرِ
لَقَدْ شَهِدَتْ أُولُـوا المُغَيـرَاتِ أَنَّـهُ   لَتَنْصُرْكَ الأَنْطَافُ فِي البَطْنِ وَالظَهْرِ
وَإِلاَّ لَتُخْـرِجْهَـا مِـنْ مَحَلِهَـا   وَتُثْقِلْهَـا وَلاَ يَشْكُـونَ فِي الأَمْـرِ
كَأَنَّكَ سَيْفٌ سُلَّ عَنْ مَعْشَرِ الرَّدَى   وَغَيْثٌ يَرْوِي الطَـائِعِينَ أُولِي الفَقْرِ[16]

وبناء على مضمون هذه القصيدة نلاحظ أنّ الزمن الذي كان يعيشه شاعرنا هو زمن عادي حقيقي، لأنه كان يقدم لنا الحوادث والوقائع كما هي دون مبالغة، بل كان يجهد نفسه في تحري الدقة والصدق، كوصفه لوقائع وأسباب ثورة محمد الريفي حاكم تطوان على السلطان مولاي عبد الله، حيث أبدع في وصف أحداثها وتفاصيلها ونتائجها، والنهاية التي آلت إليها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ صاحب الرحلة لم يمدح سلطانًا آخر بعده، ولم يتقرب إلى ذوي الجاه والسلطة بدافع الرغبة في الحصول على المال والجاه، وقد صرح بذلك حين قال: "فكان من فضل الله علي أن لم أجعل علمي سلّمًا للدنيَا، ولم أنل به شيئًا، ولم أمدح أحدًا لطمع، ولا مدحت سلطانًا قط غير هاتين القصيدتين، حملني للأدب (كذا)، ولم أتكلف لوصولهمَا، فخلدتهمَا في ديوان الأدب، ولم يراهمَا"[17].

وله قصيدة أخرى في نفس الغرض (المدح)، قالهَا في شيخه أحمد بن المبارك، وفيهَا يُكثر من الالحاح في طلب الإجازة منه، كما وصف فيها حالة العلوم في عصره، وتبلغ هذه القصيدة ثلاثة عشر بيتًا، جاء فيها قوله:

أَيَـا شَيْخَنَـا شَيْخُ البَرِيَّـةِ كُلِّهَـا   أَسَيدِ أَحْمَدِ المبَـارَكِ فِي الدَّهْـرِي[18]
عَلَوْتَ عَلَى أَعْلاَ ذُرَى المَجْدِ رِفْعَـةً   فَكُنْتَ فِي أَوَجِ العِزِّ كَالكَوْكَبِ الدُرِي

وَكُنْتَ نَسِيجَ وَحْدِكَ اليَوْمَ فِي العِدَى ... وَمِنْ أَيْنَ لِلْإِسْلاَمِ مِثْلَكَ كَالنِيرِي
وَمَنْ مِثْلُكُمْ فِي الكَوْنِ يُقْصَدُ بَابُهُ ... وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِينَا وُجُودُهُ فِي العَصْرِي
لَقَدْ عَمَّ بَحْرُ الجَهْلِ حَتَّى رَأَيْتُهُ ... مُحِيطًا بِآفَاقِ الأَنَامِ عَلَى البَرِّي
وَقَدْ صَارَ كُلُّ دِينٍ يَصْرُخُ وَحْدَهُ ... وَدَعْوَتُهُ تَحْكِي مُسَيْلَمَةَ الشَرِّي[19]

إلى أن يطلب منه الإجازة صراحة، فيقول:

وَأَنْتَ إِمَامٌ بِالعُلُومِ مُحَقِقًا ... بِسَاحَتِكُمْ فُلْكُ النَّجَاةِ مِنَ البَحْرِي
وَإِنِيّ طَلَبْتُ اللهَ أَنْ أَرَى وَجْهَكُمْ ... وَأَسْجُدَ عَنْ تِلْكَ الأَكُفِ عَلَى البَرِّي
وَهَا أَنَا قَدْ نِلْتُ الذِي كُنْتُ أَشْتَهِي ... وَقَدْ بَقِيَتْ لِي الإِجَازَةُ فِي النَشْرِي
فَضَعْ خَطَّكَ المَرْفُوعَ فِي نَصْبِ صَفْحَتِي ... وَعَقِبْ بِهِ مَنْ قَدْ لَقَيْتَ مِنَ الغِرِّي[20]

2- التصوف: ويهمنا هنا أن نشير إلى أن ابن حمادوش لم يكن "من المتصوفة أو حتى المتظاهرين بالتصوف مثل معظم فقهاء وقته... ولذلك حكم بعضهم بأنّه كان عقلانيًا بمقياس ذلك العصر"[21] غير أنّنَا نجد في الرحلة ما يدل على أنّه كان متجاوبًا مع روح العصر في هذا الجانب أيضًا، ولكن بنسبة ضئيلة جدًا.

ومن ذلك ما أورده هو في رحلته من أنّه تردد على ضريح الولي الصالح سيدي علي الريفي للزيارة وأخذ العهد، يقول: "ذهبت لزيارة سيدي علي الريف راجلاً، فقطعت واد الكيتان إلى أنصاف فخذي، وهو واد عظيم من أفضل المياه، فبلغت له ضحاء فلقيني خادمه وسلم علي وأدخلني قبة قبر الشيخ فأجلسني عنده وذهب، فبقيت إلى قرب الزوال"[22].

ويتضح من خلال كلامه (ابن حمادوش) أنّه قطع مسافةً طويلةً راجلاً، وعبر وادي الكيتان الذي وصلت مياهه كما أخبرنَا إلى فخذيه، غير أنّنا نلاحظ أنّه "لم يذكر زيارات أخرى لأولياء آخرين في الجزائر أو في المغرب، رغم كثرتهم وشهرتهم التي ربّمَا تجاوزت شهرة سيدي علي الريف"[23]، فهذا يدفعنَا إلى التساؤل عن السر وراء زيارته لضريح الشيخ سيدي علي الريف[24] بالذات دون غيره؟.

والظاهر من هذا كلّه هو "أنّ ابن حمادوش لم يسلم من الانجراف في تيار العصر، وهو تيار التصوف، غير أنّنا لا ندري إلى أيّة طريقة صوفية كان ينتسب"[25]، فرغم فقره كان فخورًا بشرفه وبصلته بآل البيت، بل إنّه تعالى على المفتي ابن علي قائلاً:

فَـلاَ يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ غَيْرُنَـا وَإِنْ أَدْرَكَ الدُنْيَا وَحَازَهَا فِي الأَيْدِي[26]

كما أننا نلاحظ أنّه انتصر للسلطان المغربي عبد الله "رغم أنّه لم يسمح له بالدخول عليه بالقصيدة التي أنشأها فيه"[27]، فالسلطان (مولاي عبد الله) هو الشريف الحقيقي، بينما أحمد الريفي في نظره ادعى الشرف، "وفي مدح ابن حمادوش للسلطان افتخر بأنّه ينتمي إلى نفس الأرومة التي خرج منها السلطان (أي السيدة فاطمة)"[28]؛ حيث نجده يذكر ذلك في قصيدة مدح فيها السلطان عبد الله سنة 1145هـ، أثناء توليته الأولى، قائلاً:

هُمْ اللُؤْلُؤُ المَكْنُونُ فِي صِدْقِ التُّقَى وَإِنَّهُمْ اليَـاقُوتُ فِينَـا إِلَى الحَشْـرِ
هُمْ زِينَـةُ الدُنْيَـا وَشَمْسُ نَهَـارِهَا وَلَوْلاَهُمْ مَا أُتْبِعَ اللَّيْـلُ بِـالفَجْـرِ
هُمْ النُورُ وَالِسرُ المَصُـونُ إِذَا بَدَا إِلَىَ الخَلْقِ، وَالرَوْضُ المُرَوْنَقُ بِالزَهْرِ
خُصُوصًا بِمَوْلاَنَا الخَلِيـفَةُ تُوِّجَتْ رُؤُوسُ بَنِي هَاشِمٍ وَقَامَتْ إِلَى الفَخْرِ
أَمَـوْلاَيَ عَبْـدُ اللهِ طِبْـتَ أُبُـوَّةً وَأُمًّا، فَهَلْ مِثْلَ الخَلِيفَـةِ فِي العَصْرِ[29].

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الأبيات أنّ ابن حمادوش أدخل نفسه في جملة الأشراف حين قال: "أنهم الياقوت فينا إلى الحشر"، وفي هذا دليل على تمسكه بالشرف وبنسبته إلى آل البيت.

3- طلب الإجازة: يستطيع القارئ للرحلة أن يلاحظ أنّ صاحبها كان يكتب يومياته ويسجل ملاحظاته ومشاهداته، كما أنّه يذكر العلماء والأدباء الذين لقيهم سواءً الذين قصدهم أم الذين سمع عنهم، كما نلاحظ أيضًا أنّه كان يسعى جاهدًا للاتصال بهم وللأخذ عنهم، وللاستفادة من تجاربهم وخبراتهم وهكذا يحصل على الإجازة[30]؛ بل أنّه كان يلح في أخذ الإجازة من العالم الذي يقصده، ويتتبع الطريقة المعروفة في الإستجازة كتقديم أبيات من الشعر أو قطعة من النثر، مقدمًا نفسه، ومثنيًا على المجيز، ثم يطلب منه الإجازة"[31]، بشكل واضح وصريح، وله قصيدة يمدح فيها الشيخ محمد بن عبد السلام البناني الفاسي، ويلح عليه فيها بأن يمنحه الإجازة، ومما جاء فيها قوله:

سَمَـوْتَ فَلَـمْ يَكُـنْ بِقُرْبِكَ نَـازِلٌ ... فَكُنْتَ فِي أَوَجِ العِـزِّ تُمْطِرُ بِالسُـؤَال
فَأَنْتَ هُوَ الشَّمْسُ المُنِيـرَةُ فِي الوَرَى ... لِكَهْفِكَ قَدْ تَـأْوِي الرَّكَـائِبُ لِلْظِّـلِ
طَلَعْتَ بِأَرْضِ الغَـرْبِ كُنْتَ نَهَـارَهُمْ ... فَفِي نُورِكَ الإِسْلاَمُ تَذْهَبُ فِي السُبُـل
وَقَدْ حَسَّـدَ الشَّرْقُ المَغَـارِبَ فِيكُم ... فَأَرْسَلَنِي نَـرْوِي الرِوَايَـــةَ بِالنَقْـلِ
رَدَدْتَ بِنُـورِ العِلْـمِ شُمُـوسَهُـم ... فَطَـالَتْ لَيَالِيـهُمْ وَمَلُوا مِنَ اللَّيْـلِ
أَيَا شَيْخَنَا البَنَـانِي الاسْمُ مُحَمَّـدُ ... فَقَدْ شَهِدَتْ لَكَ الأَكَـابِرُ بِالفَضْـلِ
كَأَنَّـكَ لُقْمَانُ فِي عِلْمِكَ وَالهُـدَى ... أَوْ أَنَّكَ حَسَـانُ إِذَا فُهْتَ بِالقَـوْلِ
أَبِحْ لِي أَنَـلْ مِنْ بَحْـرِ عِلْمِكَ غَرْفَةً ... أَبَـلْ بِهَـا حَـرَ الفُـؤَادِ مِـنَ الجَهْـلِ
أَجِـزْنِي وَأَطْلِقْ لِي رِوَايَـةَ كُلَّمَـا ... رَوَيْتُهُ عَـنْ أَشْيَـاخٍ عِزٍّ أُولِي الطُـولِ
وَوَشِـحْ بِخَطِكَ الشَّرِيـفِ إِجَـازَتِي ... فَذَاكَ لَهَا الـزَّهْـرُ النَّضِيـدُ مَـعَ الفُلِ
عَلَيْكُمْ سَـلاَمُ اللهِ فِي كُـلِّ لَحْظَـةٍ ... وَأَتْبَاعُكَ النَّجْلُ الشَّرِيفُ عَلَى الفِعْـلِ
وَصَلَّ إِلَـهُ العَـرْشِ عَنْ خَيْـرِ مُرْسَلٍ ... وَأَفْضَـلُ مَنْ حَـازَ الشَّفَـاعَةَ فِي الرُّسُلِ[32]

ونلاحظ من خلال هذه القصيدة أنّ الغاية من وراء توظيف ابن حمادوش لشخصيتي لقمان الحكيم وحسان بن ثابت عند حديثه عن شيخه محمد البناني، إنّما كان الغرض منه جعلنا نتصور مكانة هذه الشخصية التي تبرز مكانتها من خلال العلم والحكمة والتقوى، وفصاحة اللسان، كما أرادنا أيضًا أن نتصور من خلال توظيفه لشخصية مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة حالة العلوم في عصره حيث أصبح كل شخص يدعي المعرفة والعلم.

وعليه، فاستدعاء ابن حمادوش لهذه الشخصيات التاريخية وتوظيفها في خطابه الشعري كان ذا أهمية كبيرة، من حيث توضيح الصورة، وتعزيز الفكرة وتعميقها أكثر لدى القارئ حين يصادف مثل هذه الشخصيات وهو يقرأ شعره المبثوث في هذا المنجز الرحلي المغاربي.

4- الحنين إلى الأهل والوطن: لقد كانت الغربة عن الأهل والوطن من بين الدوافع التي أدت بابن حمادوش إلى أن ينظم في هذا الغرض، ونحن نعلم أن "الإنسان محب لبيئته ووطنه، وهو متمسك بهذا الوطن يحن إليه ويدافع عنه ...، والحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانية عامة لا يستطيع المرء التخلي عنها، مهما بلغ رقيه الحضاري، وتطوره المادي، وسموه الروحي، اللهم إلاّ في حالات شاذة نادرة...، ومنذ وجد

الإنسان ذاته في وطن بين أهل وأصحاب، آباء وأبناء، شعر بقوة الرابطة التي تربطه بهم، وبهذه البلاد التي شهدت خلقه وحياته، وكانت مسرحًا لتطوراته النفسية والفكرية"[33]، ولهذا فالحنين إلى الأهل والوطن أمر طبيعي يشعر به كل من ملك قلبا مرهفا.

ولقد كان "الإحساس بالغربة يتضاعف في نفوس الشعراء المهاجرين حين تمر عليهم بعض المناسبات التي تعودوا أن يقضوها بين أهلهم وذويهم، كمناسبات الأعياد ونحوها، وحين يجد الشاعر نفسه وحيدا غريبا في مثل هذه المناسبات لا يملك إلاَّ ذكرياته ودموعه"[34]، وهذا ما نلمسه في قصيدة لابن حمادوش قالها حين شهد عيد الأضحى في المغرب، والتي عبر فيها عن حزنه وغربته وبقائه وحيدًا، ومما جاء فيها قوله:

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ أَصْبَرَ صَابِرٍ وَهَا أَنَا فِي هَذَا الأَوَانِ ذَلِيلُ[35]

أَنُوحُ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ صَبَابَةً نَوَاحِيَّ الثَّكَالَى تَحْسَبُونِي جَمِيلُ

بُثَّيْنَةُ عِنْدِي وَإِنِيّ جَارُهَا وَفَارَقْتُهَا، كَرْهًا، فَإِنِيّ عَلِيلُ

وَقَدْ أَدْرَكَ العِيدُ الخَيْلَ دِيَارَهُ عَلَى شَطَّطٍ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

فَلَوْ كَانَ طَيْرٌ يَطِيرُ بِبَغْيَتِي إِلَى دَارَ زَهْرَا بِالكِتَابِ يَدِيلُ

لَطَوَقْتُهُ طَوْقَ الأَمَانِ فَيُخْبِرُ بِأَنِيّ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ نَحِيلُ

وَلَكِنْ لَمْ تَدْرِ الطُّيُورُ بِأَنَّنِي بَكَيْتُ الدِّمَاءَ، قَهْرًا، وَلِي عَوِيلُ[36]

وهنا نجد عبد الرزاق بن حمادوش يعمد إلى توظيف بعض الشخصيات التراثية في خطابه الشعري، وذلك لأنّ "المعطيات التراثية تكتسب لونًا خاصًا من القداسة في نفوس الأمة ونوعًا من اللصوق بوجداننا لما للتراث من حضور حي ودائم في وجدان الأمة ...، وكل معطى من معطيات التراث يرتبط دائمًا في وجدان الأمة بقيم روحية وفكرية ووجدانية معينة، بحيث يكفي استدعاء هذا المعطى أو ذاك من معطيات التراث لإثارة كل الإيحاءات والدلالات التي ارتبطت به في وجدان السامع تلقائيًا"[37]، فلا غرابة – إذًا – أن نجد ابن حمادوش يفسح المجال في شعره لهذه الشخصيات "التي تتجاوب معه، والتي مرت ذات يوم بنفس التجربة وعانتها كما عاناها هو نفسه"[38]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الشخصيات هي عبارة عن مؤشرات زمنية استخدمها ابن حمادوش لتعميق الفكرة وتوضيحها أكثر، فهو حين وظف شخصيتا

جميل بن معمر ومحبوبته بثينة، إنّما أراد من وراء ذلك جعل القارئ يتصور الحالة الصعبة التي يعيشها بسبب بعده عن زهراء (زوجته الثانية)، فلجوء الشاعر إلى التراث العربي يكون غالبًا لغرض تدعيم الفكرة و المعنى.

وله قصيدة أخرى في نفس الموضوع (الحنين إلى الأهل والوطن)، حين تحطمت السفينة التي كانت ستنقله ومن معه إلى الجزائر، يقول فيها:

أَيَا أُمُّ عَبْدٍ(39) صَبْرِي تَصَبَـرِي　　وَأَيْقِنِي أَنِيّ عَلَى الأَمْـرِ جَــــرِي
لَكِـنْ مَــا قُــدِّرَ لاَ يَكُـــونُ　　سِــــوَاهُ، فَأَرْضِي بِـــهِ يَهُــونُ
وَبِي كَأَلْفِ مَـا بِكِ مِنَ الأَسَــى　　وَلَيْـــسَ لِي بِدَفْعِـهِ مِنْ مُؤْتَسِي
جَــرَتْ لَنَـا الأَقْدَارُ بِالَّتِي نَـرَى　　فَاصْبِرِي صَبْـرًا كَصَبْرِي فِي الوَرَى
كَرْهًـا، وَمَا أَنَا لَدَيْكُمْ بِالفَخُـورِ　　لَكِـــنْ لِلْدُّنْيَـا يَقُـودُنِي الغُرُورُ
وَحُبُهَـا، فِيمَا عَلِمْتُمْ، كَالفُجُـورِ　　لِأَجْلِهَـــا رَكِــبَ الأَحْمَقُ البُحُـورَ(40)

والظاهر من خلال هذه القصيدة أن نزعة الحنين كانت "تتأجج في نفس الشاعر أيضًا حين يتذكر أبناءه الذين تركهم ورحل عنهم إلى مكان ناء بحثا عن الرزق ونحوه"(41)، كما سَيْطَرَ عليه الحزن حين انقطعت أخبارهم عنه، يقول في ذلك:

تَرَكْتُ أَفْرَاخًـا كَأَفْرَاخِ القَطَـا　　فِي أَفْحُـوصِ فَقْرٍ وَمَالَهُ تَمَطَا
زُغْبًــا صِغَارًا مَـا عَلَيْهِـمْ رِيشٌ　　وَأُمُّهُمْ فِي مَهَمَّـــةِ وَحِيــــــشٍ
فَمَــنْ لَهُمْ وَمَنْ لَهُمْ وَمَــنْ لَهُم　　سِـوَى إِلَهٌ خَلَـــقَ الخَلْـقَ لَهُم
بَكَيْتُ قَهْرًا عَنْكُمْ يَـا مَعْشَــرًا　　فَرَقْتُكُمْ وَمَـا وَجَـــدْتُ نَفَــرًا
لَيْسَ لَنَا اِتِصَـالٌ فِي الأَنَـــامِ　　وَلاَ لَنَــا اِتِّصَـــالٌ فِي المَنَـامِ
وَلَـمْ أَدْرِ أَقَصْرُكُـمْ رَحِيــــبٌ　　أَمْ حَـالُكُمْ كَحَالِنَـــا
نَحِيـــبٌ(42)

وما يمكن أن نستخلصه مما تقدم أن "الإنسان في الرحلة تتغير مألوفاته وعاداته فيكتسب بمواجهة ذلك أخلاقا طيبة تغرسها الرحلة في النفس، مثل خلق الصبر لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية

وآلام نفسية لفراق الأحبة ...، فإن البعيد عن وطنه أشد شعورًا بالحاجة إلى هذا الأدب"[43] للتعبير عن مشاعره وعواطفه، وفي هذا الصدد نجد قوله:

لَكِنَّهُ يَكُـونُ بَعْـدَ العُسْرِ يُسْرٌ	وَيُتْبِعُ العُسْرَ بِأَلْفِ أَلْفِ يُسْـرِ
وَأَيْقِنِي أَنَّ مَعَ الصَبْرِ الظَّفَرُ	وَإِنْ ذَا مُـــرَّ القَضَـاءُ وَالقَـدَرُ
وَأَنَّنِي رَهْـنُ الأَسَـــى فِي بَيْتِي	لاَ أَنَسٌ لاَ مُعِيـــنٌ لِي فِي قُـوتِي
لَكِنَّنِي، وَقْـتَ، قَدْ اِسْتَرَحْـتُ	مِنَ العِـــلاَجِ فِيمَـا قَـدْ رَأَيْـتُ
لَحْمِي قُوتِـي وَدِمَـائِي شُـرْبِي	وَفِكْرَتِي فِيكُمْ وَرَغْبَتِي رَبِّـــي
فَهَذَا حَالِي فِي المَسَاءِ وَالصَبَاحِ	وَهَذَا دَأْبِي فِي الغُدُّوِ وَالـرَّوَاحِ
فَإِنْ أَنَـا جَـزَعْـتُ أَوْ فَرَقْـتُ	فَأَيْقُنُوني مُـرًّا قَـــدْ كَرَعْـتُ[44]

ولهذا يهمنا أن نشير إلى أن البيئة، أو الوسط الذي يعيش فيه صاحب الرحلة بما فيه من أمور طبيعية كانت أم مصطنعة، "بتأثير النظام الاجتماعي أو السياسي، تترك بصمتها على ما يشعر به، ويحس، فتسمو تلك الإحساسات، وتبرز في صور، تعكس الوسط البيئي الطبيعي والاجتماعي"[45]، الذي يعيش فيه الشاعر، ولذلك "تلعب البيئة دورها في تطور الأحداث"[46]، وتنوعها، فَبُعْدُ صاحب الرحلة عن وطنه وأهله، وكساد تجارته، وغزارة الأمطار، وانشغال الناس بشؤونهم، كُلُّ هذه الأمور جعلته حزينًا كئيبًا وحيدًا، حيث لاحظنا أنه كان متأثرًا جدًا من جراء الغربة والبعد.

ولهذا فالجانب النفسي والصحي بالنسبة لصاحب الرحلة كان متدهوراً أيضًا، حيث صعب عليه التكيف والملائمة في البيئة الجديدة (المغرب)، حتى وجدناه يود لو يسمع أخبار أهله وأحبائه حتى ولو في المنام، وبذلك وجد الشاعر وسيلة "للتعبير عن العواطف والمشاعر والأحاسيس"[47] التي تختلج في صدره من خلال هذه القصائد.

5- الفخر والهجاء: أورد صاحب الرحلة قصيدة يفتخر فيها على الشاعر المفتي ابن علي، ويهجوه فيها أيضًا، وسبب ذلك أن ابن حمادوش كان ذات مرة في دار صديقه وشيخه محمد بن ميمون فدخل عليهما المفتي ابن علي، فلم يقم له ابن حمادوش احتراما، فغضب وخرج، وهذه هي روايته عن ذلك يقول: "... ناداني إلى داره، كعادته، شيخنا سيدي محمد بن ميمون بعد العصر، جزاه الله خيرا، اذ

قد دخل علينا الرافل في ثوبه الزاهي بكبره وعجبه، الذي يعد الأشراف أرضا، وأن نعله يطأ صفحات خدودهم فرضا، وأنه بلغ غاية القصوى، وأباح في جانبنا العدوي، وأنه استبطن منا ملكة من ذوي الأقدار، فاستقذرها وعدها من الأقذار، ورغبته في الدنيا وليس له رغبة في دار القرار، مفتي الحنفية بالوقت، ابن علي[48] المستحق المقت، فغضب اذ لم انتصب متمثلا بين يديه، وشرع ينسب الي مما اتصف به"[49]، ولقد نظم ابن حمادوش قصيدة تبلغ أربعة عشر بيتًا افتخر فيها بنسبه إلى بني هاشم، وهجا فيها ابن علي على أساس أنه من الكراغلة المولودين من أب تركي وأم جزائرية (وهو صحيح) [50]، ومما ورد في هذه القصيدة قوله:

خَرَجْتَ ذَلِيلاً لاَ أَعُودُ لمِثْلِهَا — وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ، وَيْحَكَ فِي غَمَدٍ
فَإِنيّ مِنَ اللاَئِينَ فَوْقَ الثَّرى تَرى — وَأَنْفُسُنَا فِي العَرْشِ تَابِعَةٌ المَجْدَ
بَنَا جَدُّنَا فِي العَالِيَاتِ قُصُورَنَا — فَلاَ نَرْتَضِي الأَدْنىَ كِبَارًا وَفِي المَهْدِ
وَمَنْ ذَا يَرَى فِي العَالَمِينَ قَرِينَنَا — وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَفُوقُنَا بِالنَقْدِ
فَإِنْ رَأَى حَظًّا طَارِيًا بَرَقَ خلب — فَإِنَّ وَرَثْنَا المَجْدَ جَدًّا عَنْ الجَدِّ
لَنَا مِنْهُمْ فِي العَالَمِينَ وَرَاثَةً — مَوَدَتُنَا دِينٌ وَقَلُونَا بِالضِّدِ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَقْلُوا وَمَنْ شَاءَ فَلْيَعْلُوا — وَمَنْ شَاءَ فَلْيَسْلُوا جِوَارَنَا بِالبُعْدِ
فَلاَ يُدْرِكُ المَجْدَ المؤَثَّلَ غَيْرُنَا — وَإِنْ أَدْرَكَ الدُّنْيَا وَحَازَهَا فِي الأَيْدِ
فَكُلُّ مَقَامٍ فِي ذُرَى المَجْدِ يُرْتَقَى — لَنَا أَوْجُهٌ فِي السَّامِيّينَ مَعَ الرَّفْدِ
بَنُو هَاشِمٍ خَيْرُ القَبَائِلِ مِنْهُم — إِمَامُ الهُدَى جَدُّ الحُسَيْنِيِّينَ المَهْدِ[51]

ونتبين من خلال هذه القصيدة أن الطبيعة الإنسانية بحد ذاتها قائمة على الحسد والمنافسة بين المتعاصرين، لأن الفخر في الأبيات السابقة "يعني اثبات الذات، وتهيئة الجو الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان في ظروف تسودها الصراعات والاختلافات والتنافس على قضايا معينة"[52]، ولقد لاحظنا أن صاحب الرحلة افتخر بنسبه وشرفه العلوي الهاشمي.

والظاهر أن صاحب الرحلة هجا ابن علي — كما سبق وذكرنا – كونه غير عربي، ولأنه يحب الدنيا ومتكبر ومتصلق، إلا أن هذا يعتبر رأيه الخاص، "وهيهات أن يصل شعر ابن حمادوش إلى شعر ابن

علي...، والمعروف أن ابن ميمون كان صديق الاثنين...، وكان ابن عمار وابن علي على علاقات ودية"[53].

ويبدو لنا من خلال ما تقدم أن ابن حمادوش كان فقيرًا، ولم يحض بمناصب راقية، وكانت أسرته فقيرة هي الأخرى، كما لم تكن لهم صلة بالسلطة على عكس عائلة ابن علي تمامًا، والتي تولت القضاء والفتوى الحنفية في الجزائر خلال القرن الحادي عشر الهجري، وتولاها ابن علي سنة 1150هـ، ولهذا "تدل ملاحظة السلوك الاجتماعي على أن بعض الأفراد الذين يعانون من مركب النقص قد يصبحون توكيدي الذات Self assertive، وذلك لإخفاء شعورهم بالنقص، فمن المحتمل أن يبالغ فرد في مدح نفسه، كالإشادة بمزاياه في أحد المجالات، لأنه يعاني من نقص في مجال معين"[54]، وهذا ما لاحظناه بالفعل في هذه القصيدة، حيث وجدنا ابن حمادوش يفتخر بنفسه وشرفه على ابن علي، لإخفاء النقص الذي يعاني منه، لأنه كان فقيرًا معدمًا، وابن علي كان من أصحاب الجاه والنفوذ، وهذا ما يفسر حقيقة الخلاف بينهما.

وعثرنا أيضًا في الرحلة على قطعة شعرية أخرى، هجا فيها أولاد مختار بالمغرب على بخلهم، "وقد عبر فيها على الخوف الذي ساوره هو ورفاقه لأن ليلتهم كانت محفوفة بالخطر من أولئك القوم"[55]، وتبلغ هذه القطعة تسعة عشر بيتًا، ولقد وردت في آخر مقامته الأولى، التي قالها وهو في الطريق من تطوان إلى مكناس، ومطلعها:

وَلَيْلَـةَ مُخْتَـارٍ يَبِيـتُ بِهَـا هَـــمٌّ مَــدَّى الدَّهْرِ لاَ يُرْجَى يَحُورُ عَنِ الهَمِّ
وَآلَ قَرِيـــمٍ كُلُّهُمْ مَجْمَعُ الــرَّدَى يُسِيئُونَ بِالأَضْيَافِ فِي القَوْلِ وَالحُكْمِ[56]

6- الرثـاء: إذا كانـت الحيـاة بمتطلباتهـا تسـتدعي وجـود علاقـات مختلفـة تـربط بـين النـاس في تعاملاتهم، فإن الموت أيضا كان يقوي تلك العلاقات والروابط، بل يكشف عن مدى صدقها أو زيفها فكما كان العلماء والآباء يتبادلون التهنئة ويتمادحون فيما بينهم بحكم الظروف والمناسبات، نلاحظ أنهم كانوا أيضًا ينظمون الأشعار عند "وقوع مصاب بأحد العلماء أو الشيوخ وشعر الرثاء على خلاف شعر

المدح قليل"[57]، ومما لا شك فيه أن الرثاء يكون أصدق إذا ما قيل في الشيوخ والعلماء والأقارب، ولابن حمادوش قصيدة في رثاء شيخه أحمد بن المبارك، تبلغ ثلاثين بيتًا، ومما جاء فيها قوله:

أَفَلْتِ يَا شَّمْسَ الغَرْبِ فِي حَجْبِ الثَّرَى وَأَبْقَيْتِ فَاسًا فِي الظَّلاَمِ وَفِي الغَمّ

فَحَيَّرْتِ رُصَادًا وَعَطَّلْتِ آلَةً وَفَرَحْتِ شَيْطَانًا قَهَرْتُهُ بِالرَّجْمِ

أَيَا شَيْخَنَا شَيْخُ الجَمَاعَةِ أَحْمَدُ أَنَجْلَ مُبَارَكٍ وَصَلْتَ ذُو الرَّحِمِ

بَذَلْتَ عُلُومًا كُنْتَ فِيهَا مُبْرِزًا فَلَسْتَ بمنَاعٍ العُفَاتَ مَنَ الفَهْمِ[58]

ويظهر رثائه لشيخه واضحا في هذه الأبيات، يقول:

رَثَّيْتُكَ مَحْزُونًا وَكُلُّ الوَرَى مِثْلِي وَأَنَّ لَنَا شَخْصًا كَمِثْلِكَ فِي الحِلْمِ

يَحِقُ لَنَا أَنْ نَبْكِي العُمْرَ بِالدِّمَاءِ عَلَى العَالِمِ النَّحْرِيرِ إِذْ ثَّوَى فِي الرُّمِ[59]

وتعتبر هذه القصيدة هي الوحيدة له في غرض الرثاء، وهذا يثبت فعلا ما أشرنا إليه سابقًا من أنَّ هذا الغرض الشعري قليل جداً إذا ما قورن بالأغراض الأخرى التي عثرنا عليها في الرحلة كالمدح، والحنين إلى الأهل والوطن.

7- الألغاز: لقد كان تداول الألغاز والتنافس في حلها "نوعا من الرياضة الأدبية يتعاطاها الفقهاء والشعراء، على السواء، ففي وقت انعدمت فيه أو كادت وسائل الترفيه والتسلية، كان اللجوء إلى التلغيز بالشعر احدى هذه الوسائل وكان الملغز يعبر عن حادثته بالبيت أو الأبيات، ولكنه لا يلجأ إلى القصيدة الطويلة، وليس من الضروري أن ينظم الملغزون ألغازا جديدة فقد كان بعضهم يعود إلى كتب الأدب العربي ويأخذ منها نموذجا أو أكثر، ويرسل به إلى زملائه فيعملون فيه الرأي والذكاء محاولين الاجابة التي قلما تكون صائبة"[60].

أورد ابن حمادوش لغزا [61]من كتاب البوني[62] في الألغاز ، ولقد حاول حله مع بعض علماء الجزائر والمغرب وتونس، غير أنهم عجزوا عن حله، بدليل قوله في الرحلة: "فتداولناه بيننا حتى بلغ كل عالم وأديب في البلد فلم يفتض بكرته ولم نجد علما عند أحد به"[63]، ومما ورد في اللغز[64] قوله:

أَلاَ أَيُّهَا الغَادِي عَلَى ظَهْرِ أَجْوَدٍ يَشُقُ الفَيَافِي قَدْقَدًا بَعْدَ قَدْقَدٍ

تَحَمَلْ، رَعَاكَ اللهُ، مِنِي تَحِيَّةٌ تُحَيِّي بِهَا أَهْلَ المَجَالِسِ فِي غَدٍ

وَقُلْ لَهُمْ مَـا سَبْعَةٌ خُلِقُـوا مَعًـا وَمَـا سَبْعَـةٌ فِي ثَـوبِ خِزِّ مُـــورِدِ
حَوَاجِبُهُمْ سَبْعُــونَ فِي وَجْهٍ وَاحِـدٍ وأَمَا أَعْيُنُهُمْ تِسْعُونَ فِي خَلْقٍ هُدْهُدِ
أَبُوهُمْ لَهُ حَرْفَـانِ مِنْ اسْمِ جَعْفَرٍ وَحَـرْفَـانِ مِنْ اسْـمِ عَــلِيٍّ وَأَحْمَـدِ[65]

ومن علماء الجزائر الذين سألهم صاحب الرحلة عن معنى هذا اللغز، يحي الشاوي[66]، والذي قال أنه: أجابه في الحال وعلى ارتجال بقوله:

هُمْ سَبْعَـةٌ مِنْ بَيْضَةٍ خُلِقُـوا مَعًا وَمِثْلُهُـمْ فِي ثَـوْبِ خِـــزٍّ مُـــورِدِ
حَـوَاجُبُهُمْ سَبْعُـونَ فِي كُـلِّ وَاحِدٍ وَأَعْيُنُهُـــمْ تِسْعُـونَ صُورَةُ هُدْهُدِ
أَبُـوهُمْ رَجِيـــمٌ مَـارِدٌ مُتَمَــرِّدٌ وَقَدْ جُمِعَتْ مِنْ لَفْظِ لُغْـزٍ مُقَيَّدِ[67].

كما يذكر صاحب الرحلة أيضًا أن الشيخ ابن باديس[68] "بعث باللغز المذكور إلى الجزائر فلم يحصل من فقهائها جوابا عنه، وكنت كاتبته بجواب شيخنا الشاوي عنه فأجابني بأنه لم يفهم الجواب، فأحلته على النظر في الحياة الكبرى للدّميري[69] فانه ذكر ما يوضح اللغز، فعليك به"[70]، وهذا دليل واضح وصريح عن عجز المؤلف وعلماء الجزائر في حل هذا اللغز.

وفي ختام حديثنا عن الأشعار التي عثرنا عليها في الرحلة وما تحتويه من مضامين فكرية، نتبين أن ابن حمادوش حين قال: "أنه قد بنى ديوانه على الغزل والنسيب ومدح المصطفى والمراثي يحتاج إلى التأمل، ومن الطبيعي أن تكون الرحلة ليست ديوان شعره، فهي لتسجيل الأحداث لا الأشعار"[71]، كما نلاحظ أيضًا أنّه كثيرًا ما يشير إلى أن شعره غير جيد، وانّما يحاوله كدخيل عليه، لذلك ففي أشعاره العديد من الأخطاء العروضية والنحوية والإملائية وغيرها.

ومن خلال أشعاره المبثوثة في الرحلة عرفنا أنه كان معاصرًا لشاعرين كبيرين همَا أحمد بن عمار وابن علي، "فشعر ابن حمادوش إذا ما قورن بشعرهما لا شيء في الواقع، فهو ليس سوى متطفل على قول الشعر، كما تدل على ذلك قوافيه وبحوره وتعابيره"[72]، بالإضافة إلى ذلك فإنّنا إذا قارنَا فنون نثره بأغراض شعره، فسوف نلاحظ أن مقاماته مثلا أجود من شعره على سبيل المثال.

وعلى كل حال، فإنّ الرحلة بكل موضوعاتها "تكمن فيها المتعة كما تكمن فيها... الفائدة"[73] بما تقدمه لنا من معلومات وأخبار عن حياة مؤلفها واهتماماته العلمية، والأدبية – النثرية والشعرية–

ودراسته الشخصية لما حوله، إلى جانب ما تحتويه من أخبار عن عصره ومعاصريه، سواء عن الجزائر أم عن المغرب الأقصى.

هوامش الدراسة

1- يراجع إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو مصرية، ط07، 1997م، ص07.

2- يراجع محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، د/ط، 1985م، ص123.

3- فادي إسماعيل، الخطاب العربي المعاصر، قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة، ط03، 1992م. ص13.

4- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، د/ط، 1981م، ص11.

5- يراجع مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط01، 1989م، ص151.

6- يراجع رابح بوحوش، اللّسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، ط01، د/ت، ص17.

7- يراجع أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2010م، ص39.

8- مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط03، 1983م، ص231.

9- هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد، المعروف بابن حمادوش الجزائر، عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، فقد ولد في مدينة الجزائر سنة (1107هـ -1695م)، وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين ... وكانت أسرته فيما يبدو تمتهن الدباغة"، لأنه وصف والده وعمه في بعض العقود موصوفين بكلمة "الدباغ"، يراجع عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د/ط، 1983م، ص09.

10- الرحلة، ص118.

11- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط02، 2005م، ص41.

12- الرحلة، ص116.

13- المصدر نفسه، ص116.

14- المصدر نفسه، ص117.

15- المصدر نفسه، ص97.

16- المصدر نفسه، ص97، 98.

17- المصدر نفسه، ص117.

18- كذا القصيدة على هذا النحو سواء منها المنسوب وغير المنسوب، وقد تركنا ذلك على حاله، وهي أيضا مليئة بالأخطاء العروضية والنحوية.

19- الرحلة، ص83.

20- الرحلة، ص83.

21- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، المرجع نفسه، ص48.

22- الرحلة، ص33.

23- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص49.

24- يكتبه تارة الريفي، وتارة أخرى سيدي علي الريف، وهو من صلحاء تطوان.

25- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، المرجع نفسه، ص49.

26- الرحلة، ص256.

27- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، ص50.

28- المرجع نفسه، ص50.

29- الرحلة، ص217.

30- يراجع الرحلة، ص39.

31- أبو القاسم سعد الله، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، حرف الحاء، المجلد السابع، دار الجيل، بيروت، ط01، 1426هـ- 2005م، ص207.

32- الرحلة، ص39.

33- محمد إبراهيم حوّر، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، ط02، 1409هـ-1989م، ص24.

34- فوزي سعد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، د/ط، 2000م، ص29.

35- في هذه القصيدة خلل كثير لم نصلحه، من أخطاء نحوية وإملائية، ومع ذلك فموضوعها طريف وفيها لقطات جيدة.

36- الرحلة، ص108.

37- علي عشري زايد ،استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، د/ط، 1417هـ-1997م، ص16.

38- عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الكتاب العربي، القاهرة، د/ط، 1967م، ص307.

39- يبدو أن المؤلف هنا يخاطب أمه، و(عبد) هو عبد الرزاق اسمه هو.

40- الرحلة، ص109، 110.

41- فوزي سعد عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، نفس المرجع، ص29.

42- الرحلة، ص110.

43- الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الرحلة في طلب الحديث، حققه وعلق عليه، نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، مصر، ط01، 1395هـ-1975م، ص27.

44- الرحلة، ص110.

45- حميد آدم ثويني، فن الأسلوب، دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط01، 1427هـ- 2006م، ص59.

46- محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة، أصولها، اتجاهاتها، أعلامها، منشأة المعارف بالإسكندرية، د/ط، د/ت، ص06.

47- إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، ط02، 1409هـ-1989م، ص42.

48- هو محمد بن محمد المهدي المعروف بابن علي، تولت أسرته القضاء والفتوى في الجزائر خلال القرن الحادي عشر الهجري، ولد حوالي 1090هـ، وتولى الفتوى الحنفية في سنة 1150هـ، وظل فيها إلى سنة 1169هـ، حين توفي أو عزل، ولا ندري تاريخ وفاته بالضبط، يراجع الرحلة، هامش، ص256.

49- الرحلة، ص256.

50- يراجع نفس المصدر، هامش، ص256.

51- الرحلة، ص256، 257.

52- العربي دحو، الأدب العربي في المغرب العربي، من النشأة إلى قيام الدولة الفاطمية (30هـ-230)، دار الكتاب العربي، الجزائر، د/ط، 2007م، ص86.

53- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج2، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2007م، ص276.

54- خير الله عصار، مقدمة لعلم النفس، العلم التجريبي، مجلة الثقافة (مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر)، السنة العاشرة، العدد 58، شعبان رمضان 1400هـ، يوليو آب، 1980م، ص109.

55- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، المرجع نفسه، ص41.

56- الرحلة، ص72.

57- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع نفسه، ص279.

58- الرحلة، ص87.

59- المصدر نفسه، ص88.

60- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع نفسه، ص286.

61- يعرف بلغز السبعة، ولقد وضع فيه الشيخ أحمد البوني تأليفًا خاصًا به.

62- هو أحمد بن قاسم بن ساسي البوني له حوالي مائة تأليف، توفي في عنابة سنة 1139هـ.

63- الرحلة، ص130.

64- ينسب هذا اللغز إلى عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى بالقاهرة سنة 911هـ، يراجع الرحلة، هامش، ص131.

65- الرحلة، ص130.

66- هو يحي الشاوي المليانى، المتوفى سنة 1096هـ.

67- الرحلة، ص131.

68- الظاهر أنه هو بركات بن باديس القسنطيني، شيخ أحمد البوني، ولا ندري متى توفي ابن باديس، غير أنه من علماء القرن الحادي عشر الهجري، يراجع الرحلة، هامش، ص131.

69- هو محمد بن موسى بن يحي الدِّميري المصري صاحب كتاب (حياة الحيوان الكبرى)، توفي سنة 808هـ.

70- المصدر نفسه، ص131.

71- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، المرجع نفسه، ص45، 46.

72- المرجع نفسه، ص46.

73- حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب – رحلات أمين الريحاني نموذجا –، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، د/ط، 1995م، ص03.